محمد إقبال وبديع الزمان النورسي

الائتلاف والاختلاف

"كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته، وجلال الدين الرومي في حكمته، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه، وكن مع من شئت في العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل، حتى تكون لك أنة في السحر".

محمد إقبال

"أيها الناس، أتريدون تحويل عمركم القصير الفاني إلى عمر باق طويل مديد، بل مثمر بالمغانم والمنافع؟ فمادام الجواب: أن نعم، وهو مقتضى الإنسانية، فاصرفوا إذن عمركم في سبيل الباقي، لأن أيما شيء يتوجه إلى الباقي ينال تجليا من تجلياته الباقية".

بديع الزمان النورسي

في الندوة التي احتضنتها جامعة وجدة عن (حوار الشرق والغرب في رسائل النور)[1] أشرت إلى العلاقة بين محمد إقبال وبديع الزمان النورسي، فالتقط أستاذنا الكبير إحسان قاسم هذه الإشارة العابرة ببصره الحصيف، ورغّب إليّ إعداد بحث مفصل في الموضوع، يقدم إلى ندوة (النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور).[2] وقد سعدت بهذه الرغبة وأشفقت منها في الوقت ذاته: سعدت بها لأنها تمنحني فرصة أخرى لمصاحبة علَمين شامخين أحببتهما منذ سنوات الطلب الأولى واعتبرت نفسي مدينا لهما في ميدان الفكر والأدب، وأشفقت منها لأن كل واحد من الرجلين بحر عميق يحتاج الغوص إلى أغواره لالتقاط ما يكتنزه من درر إلى سبّاح ماهر، وما أزعم لنفسي ذلك، فكيف إذا تعلّق الأمر بتناول الرجلين معا في أدبهما وفكرهما لاستخلاص ما يمكن أن يظهر عندهما من مظاهر الائتلاف والاختلاف ؟ إنه لأمر جلل حقا. ولكن الرغبة في مصاحبة الرجلين والاغتراف من بحريهما غلبت الإشفاق، على قلة الزاد وكثرة الأعباء، فاستعنت بالله تعالى وأقبلت على موضوعي طامعا في ملامسة بعض أطرافه، إذ الإحاطة به أمر قد تنقطع دونه الأعناق، وتضعف الهمم. وشجعني على ذلك شغفي بالرجلين من قديم وحبي لهما. فأما بديع الزمان فقد عرفته من خلال بعض الرسائل الصغيرة التي وقعت إلي في ذلك الزمان المبكر،زمن الطلب الأول، مثل "رسالة الإخلاص" و"الخطبة الشامية"، وكلفت به، واعتبرته شيخا مربيا، قبل أن يقدر الله تعالى لي أن أظفر بذلك الكنز العظيم المتمثل في "كليات رسائل النور"، وذلك من خلال المكرمة التي قدمها إلى العالم الإسلامي عامة، والعربي خاصة، الأستاذ الفاضل إحسان قاسم حفظه الله

---

(١) عقدت في كلية الآداب والعلوم الإنسانية يومي الأربعاء والخميس ١٤١٥ محرم الحرام ١٤٢١هـ الموافق لـ ١٩٢٠ أبريل ٢٠٠٠.

(٢) إستانبول - تركيا ٢٤-٢٦ شتنبر ٢٠٠٠.

تعالى، مما هيأ لي ذخيرة لا تنفد من الفكر البديع والأدب الرفيع، وجعلتني أختصر مطامحي في أن أكون تلميذا من تلاميذ النور، عسى أن يتقبلني الله تعالى ويحشرني في زمرة أهل النور.

وأما محمد إقبال فقد جمعني به أكثر من سبب، وقد عرفته شاعرا ومفكرا، ولو من خلال ما ترجم له من فكره وأدبه إلى العربية. ولقد عهدتني قبل أن أعرف محمد إقبال معجبا بآداب الهند وفنونها، ولعل رابندرانات طاغور كان أكثر انتشارا في عالمنا العربي من إقبال، فكان طبيعيا إلى حد ما أن تكون صلتي به أكثر في فترة من الفترات، وقد أعجبت بطاغور وبنزعته الإنسانية وتوجهاته الإيمانية العامة، على هندوسيته، ولكنني حين اكتشفت إقبالا، عرفت فيه الشاعر المسلم العظيم المنطلق من شبه القارة الهندية ليحلق في كل قطر من أقطار العالم، وشعرت بفخر عظيم أن يكون من شعراء الإسلام شاعر بحجم إقبال، ولعله وطد في نفسي الاعتزاز بالانتماء إلى دوحة الأدب الإسلامي السامقة، فأضيف إلى الشعور بالإعجاب عاطفة الحب، فلقد أحببت هذا الشاعر المفكر الذي سخر ما منحه الله تعالى من مواهب للدفاع عن الإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية، وفي غيرها من أقطار الأرض، والدفاع عن الإنسانية كلها من خلال الإسلام، وقد أحسسته قريبا إلى نفسي، واعتبرته صديقا ورفيقا، وإن كان على الحقيقة أستاذا وموجها. وازداد تعلقي به خلال الفترات التي أتيح لي فيها أن أجلس إلى سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله، وذلك منذ المؤتمر التأسيسي لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، فقد كنت ألقاه مرة أو مرتين كل عام، إما خلال دورات مجلس أمناء الرابطة، وإما خلال بعض مؤتمراتها وندواتها، في الهند والحجاز وتركيا ومصر والأردن والمغرب، وفي زيارتي الأولى للهند حرصت على أن أقتني أشعاره المكتوبة باللغة الأوردية، وكانت ضمها مجلد واحد، رغم عدم

معرفتي هذه اللغة، ولكنه الحب الذي جعلني أطمع في أن أتعلمها وأقرأ بها كنوزا من الأدب الإسلامي.. لقد كان الشيخ أبو الحسن رحمه الله معجبا بإقبال أيما إعجاب، يستشهد بأقواله ويكاد ينشد من شعره في كل المناسبات، وكثيرا ما سمعته يردد قول إقبال: "يا أهل الذوق والنظر العميق، أنعم وأكرم بنظركم، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مغن، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس، لا بارك الله في نسيم السحر، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول والذوي والذبول". ولقد قرأت لشاعر فرنسا فكتور هيكو قوله: (أريد أن أكون شاتوبريان أو ألا أكون شيئا على الإطلاق)، وذلك لشدة شغفه بسلفه الشاعر الكبير، فوجدتني أنهج نهج الشاعر الفرنسي وأقول: "أريد إن أكون إقبالا أو ألا أكون شيئا على الإطلاق".

وما أرى الحب الذي شدني إلى بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال إلا لصفات مشتركة جمعت بين الرجلين، ولئن كان ذلك عندي شعورا غامضا أول الأمر أحسه ولا أكاد أدرك أسبابه، لقد تبيّن لي بالتأمل والتتبع أن مظاهر الائتلاف بين الرجلين متعددة، وأن الاختلاف القائم بينهما، إذ لا بد أن تظل لكل واحد منهما شخصيته المتميزة، إنما هو اختلاف تواد لا اختلاف تضاد.

ولعل أكبر مظاهر الائتلاف بين الرجلين أننا لا نعدو الحق قيد أنملة إن نحن أطلقنا على كل واحد منهما: "الرجل القرآني"، فعلى الرغم من سعة علم الرجلين وتبحرهما في علوم الشرق والغرب، إلا أن مدار الأمر كله عندهما هو القرآن الكريم أولا وآخرا، وما سوى ذلك إنما كان تفريعا يدور حول القرآن الكريم.

أما أجلى مظاهر الاختلاف بين الرجلين فمرده إلى ترتيب أولوية الموهبة عند كل واحد منهما، فمحمد إقبال شاعر أولا، فالشعر هو الغالب عليه، ولكنه رجل مفكر في شعره، فليس شعره بذلك الشعر الذي يعنى ببراعة التصوير ودقة

التعبير، بمعزل عما يحمل ذلك الشعر من فكر صحيح وعقل راجح وقلب متقد، ولعل هذا سر انتشار شعر إقبال عالميا، فالشعر -كما أشرت إلى ذلك في موضع آخر- حين يترجم يفقد عادة كثيرا من خصائصه، وقد أشار شيخ نقادنا القدامى، الجاحظ، إلى أن الشعر لا يترجم، لأنه إذا ترجم فقد ذلك المعجز الذي هو الوزن. ولكن شعر محمد إقبال لا يكتسب جماله من كونه كلاما موزونا مقفى فحسب، بل هو يكتسبه من ذلك القبس الرباني الذي يسري فيه، والعمق الإيماني الذي يتلبسه، والفكر المستنير الذي يسوقه وقد ألبسه ثوبا قشيبا من الخيال اللماح. فلذلك كله نقرأ شعر إقبال وقد ترجم من لغته، الفارسية أو الأوردية، إلى العربية مثلا، فيهزنا من الأعماق، ونستجيب له كما لا نستجيب لكثير من الشعر العربي السيّار في منابرنا الثقافية اليوم، ونحن نقرأه في لغته، لأنه كلام بارد غث فقد حرارة الإيمان وتوهج العاطفة. لقد خلف إقبال في مجال النثر والدراسة عددا من المحاضرات والدروس، من أشهرها محاضراته التي جمعت في كتاب عنوانه: "تجديد الفكر الديني في الإسلام"،[1] ولكن فكر إقبال الأصيل المتفرد إنما يتجلى في شعره أولا. ولعل بعض المآخذ التي أخذت عليه كثيرا إنما كانت في تلك الدراسات النثرية لا في شعره. فأنت لا تجد في شعره إلا ذلك التدفق الإيماني المبشر بالإسلام والداعي في عمق إلى يقظة المسلمين، وليس الشعر مجالا للمجادلات الفلسفية والمناظرات الكلامية والمنطق الخطابي. أما النثر فقد دفع إقبالا إلى الخوض في بعض القضايا الفلسفية والكلامية، وجاوز ذلك كله -بإخلاص دون شك- إلى تفسير بعض الآيات على غير الوجه الذي تطمئن إليه

(١) لقد قام بترجمة هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ عباس محمود، وراجع مقدمته والفصل الأول منه المرحوم عبد العزيز المراغي بك، وراجع بقية الكتاب الدكتور مهدي علام، وصدر عن مطبعة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٥.

النفس كل الاطمئنان، ومثال ذلك ما ذهب إليه أثناء حديثه عن آية من كتاب الله عز وجل، حيث يقول: "على أن القرآن يرى أن البعث يكسب الإنسان حدة في البصر ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق:٢٢). ويرى بها مصيره الذي كسبه لنفسه معلقا بعنقه، أما الجنة والنار فهما حالتان لا مكانان. ووصفهما في القرآن مصير حسي لأمر نفساني، أي لصفة وحال، فالنار في تعبير القرآن هي ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ (الهمزة:٦-٧)، هي إدراك أليم لإخفاق الإنسان بوصفه إنسانا، أما الجنة فهي سعادة الفوز على قوى الانحلال.

وليس في الإسلام لغة أبدية. ولفظ الأبدية الذي جاء في بعض الآيات وصفا للنار يفسره القرآن نفسه بأنه حقبة من الزمن ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ (النبأ:٢٣)[1] حتى لقد لاحظ الدكتور مهدي علام في قضية الخلق مذهب لايبنتز الذي يقول إن كل موجود حي، وليس بين الموجودات من تفاوت في الحياة إلا بالدرجة إلخ.. كما يلاحظ مشابه أخرى بين إقبال ولايبنتز، حتى لقد صرح أن تأثير لايبنتز في إقبال يبدو قويا...[2] هذا بالرغم من أن إقبالا كان شديد التحوط في إصدار أحكام خشية الزيغ ما وسعه ذلك، فلذلك ردَّ كثيرا من آراء الفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة، حين كان يرى في تلك الآراء شيئا من الزيغ أو الشطط، فلقد وقف بشدة في وجه القول بوحدة الوجود مثلا، فقال في معرض حديثه عن قوله تعالى في حق المصطفى ﷺ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم:١٧) : "وواضح أن التصوف القائم على مذهب وحدة الوجود لا يمكن أن يزكي هذا

---

(١) المرجع المذكور، ص ١٤٠-١٤١.

(٢) ينظر ذلك في مواطن عدة من الكتاب المذكور آنفا.

الرأي، بل يثير مشكلات ذات صبغة فلسفية: كيف يمكن للذات المتناهية والذات غير المتناهية أن يستعبد كل منهما الآخر؟ وهل تقدر الذات المتناهية بوصفها هذا على الاحتفاظ بتناهيها إلى جانب الذات غير المتناهية؟".[1] وهنا يلتقي إقبال في وضوح مع بديع الزمان الذي يرد في اللمعة التاسعة من مجموعة "اللمعات" على القائلين بوحدة الوجود في معرض جوابه عمن سأله عن مذهب ابن عربي في وحدة الوجود. وهو يرد على هذا المذهب دونما انتقاص من ابن عربي، إذ بعدما ضرب مثلا واضحا بالطاووس، على مذهبه في ضرب المثال، وبيَّن "أن زينة جمال ذلك الطاووس المثالي الذي هو يمثل الكائنات، ليس إلا رسالة من قلم خالق ذلك الطاووس"، انتهى إلى أن الأمر كذلك فيمن أحب الدنيا العظيمة وجعل الكون برمته معشوقه، فحينما تتحول هذه المحبة المجازية إلى محبة حقيقية بسياط الزوال والفراق التي تنزل بالمحبوب، يلتجيء ذلك العاشق إلى وحدة الوجود إنقاذا لمحبوبه العظيم من الزوال والفراق." ومن هنا يتباين الموقف من وحدة الوجود عنه من وحدة الشهود:"فإن كان ذا إيمان رفيع راسخ يكون له هذا المشرب مرتبة ذات قيمة نورانية مقبولة كما هي عند ابن عربي وأمثاله، وإلا فلربما يسقط في ورطات وينغمس في الماديات ويغرق في الأسباب.

أما وحدة الشهود فلا ضرر فيها، وهي مشرب عال لأهل الصحو."

وإذا كان محمد إقبال شاعرا أولا، كما قررنا آنفا، فإن بديع الزمان النورسي مفكر أولا، ولئن كان يقرر في أكثر من موضع من الرسائل أنه حُرم نعمة النظم، إلا أنه رزق روحا شعرية وأسلوبا شعريا بديعا يجعل كلامه من حاقّ الشعر، وذلك الأسلوب الشعري، بما اشتمل عليه من نداوة وطلاوة، وما تضمنه من

(١) المرجع المذكور، ص ١٣٦.

تخييل وتمثيل وضرب للأمثال صار ميسما لرسائل النور، وهو مما يهبها التفرد في التعبير مثلما وهبت التفرد في التفكير، ويقوم "المثنوي العربي النوري" مثلا ناطقا على هذا. فإقبال إذن شاعر مفكر، وبديع الزمان مفكر شاعر، ثم تأتي بعد ذلك مظاهر الائتلاف بين الرجلين تترى.

رجل القدر

عاش كل من محمد إقبال والنورسي في فترة عصيبة من حياة الأمة الإسلامية، هي فترة العقدين الآخرين من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين، فقد ولد الرجلان في فترة واحدة تقريبا (ولد محمد إقبال عام ١٨٧٧م- وولد بديع الزمان النورسي عام ١٨٧٦)[1] وشهد الرجلان وهما في فترات التكوين الأولى ما تتعرض له أمتهما من هوان على يد الاستعمار الغربي من جهة، وبعض الحكام الفاسدين من جهة أخرى. فكان الاستعمار الغربي يأتيها ينقصها من أطرافها، ويسعى إلى الإجهاز عليها حضاريا، وكانت الخلافة العثمانية، على ضعفها، تمثل رمزا تتوحد تحت ظلاله أمة الإسلام، فتجد لها الدول الغربية هيبة لذلك، فلم يبق إلا أن تتآمر من أجل الإجهاز على هذا الكيان الذي بقي يمثل الخيط الرابط بين أجزاء هذه الأمة المترامية الأطراف، وكانت تركيا، مقر عاصمة الخلافة، أقرب الأجزاء إلى الغرب وأكثرها تعرضا للاحتكاك به كل حين، فلا غرو أن تكون أكثر الأقطار الإسلامية بلاء، وكانت الهند -على النقيض من ذلك- أبعد تلك الأطراف، إن لم تكن أبعدها على الإطلاق، ولكنها كانت في الوقت ذاته جوهرة التاج البريطاني، ولم يكن من اليسير أبدا التفريط فيها، لأن في ذلك انفراطا لعقد الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس. وعندما دخلت بريطانيا الهند

(١) انظر كتابَي أبي الحسن الندوي وإحسان قاسم.

كان للمسلمين فيها شأن عظيم، وكانت الإمارات الشمالية خاصة تحت إمرة المسلمين، ولكن الضعف الناتج عن الانصراف إلى ملذات الحياة الدنيا كان أخذ من ذلك الكيان مأخذه. في هذا الظرف بالذات كان كل من بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال رجل القدر في حياة أمة، بتعبير الأستاذ أورخان علي. لقد كانت حياة الأستاذ بديع الزمان حافلة بالأحداث الجسام، وهي تمثل ملحمة إنسانية حقا، ولا يملك قارئ سيرته الخصبة إلا أن يسلم أن الأستاذ كان فعلا رجل القدر في حياة أمة، وقد جعل همه الأول إنقاذ الإيمان، و لم يكن ذلك أمرا هينا، فالإيمان مناط الأمر كله، ولذلك كان متوقعا ألا يكون طريق الأستاذ لاحبا لينا، ولا أن يكون جهاده هينا، كما كان متوقعا أن يجد مقاومة عنيفة وشرسة من خصوم الأمة ومن أعدائها الداخليين والخارجيين، بالرغم من أن منهج الأستاذ كان يقوم على اللين والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة. وما المحاكمات المتوالية التي تعرض لها الأستاذ، والسجون التي ذاق نكالها، غير دليل ساطع على ذلك الجهاد الكبير الذي قام به. والرفق الذي اتبعه الأستاذ بديع الزمان في جهاده لم يكن يقوم على السلبية، تحت شعار: "اللاعنف" كما فعل غاندي في الهند مثلا، بل كان يقوم على الجهاد، وللجهاد صور شتى، و لم يكن الجهاد العسكري نفسه خارج دائرتها، وقد حمل الأستاذ السلاح وقاتل بنفسه أعداء الأمة، ولكل مرحلة صورتها من صور الجهاد. فخلال الحرب العالمية الأولى، والجيوش الروسية تحاول الاندفاع نحو الأناضول كان سعيد النورسي يقاتل هو وطلابه الجيش الروسي بكل ما أوتوا من جهد. وفي هذه المعارك وفي خنادق القتال ألّف تفسيره القيم "إشارات الإعجاز في مظان المجاز" باللغة العربية[1] وهكذا كان النورسي فارس السيف والقلم.

---

(١) بديع الزمان النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره إحسان قاسم الصالحي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٤١٩هـ/١٩٩٩ ص٤١.

وهنا أيضا يلتقي العلامة محمد إقبال مع الأستاذ بديع الزمان النورسي، فقد كان إقبال مناهضا للاستعمار الغربي بجميع مظاهره وأشكاله، وكان محرضا لمسلمي الهند على الاستقلال، وكان في الوقت نفسه شديدا على أمراء الولايات الإسلامية الذين أهتهم الحياة الدنيا عن الجهاد والدفاع عن المستضعفين. وقد تحدث عن باكستان، التي كانت حلما وفكرة يومئذ، ولم تقم الدولة على أرض الواقع إلا عام ١٩٤٧م، بعد وفاة إقبال بنحو عشر سنين، فقال: "إن أمة لا تملك أرضا تستند إليها لا دين لها ولا حضارة، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة. وإن باكستان هي الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارة الهندية، وهي الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية، وأشار إلى نظام الزكاة وبيت المال في الإسلام".

وبمناسبة مستقبل المسلمين في الهند، قال: "أشرت على بعض أمراء المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الإسلام في غير المسلمين، ونشر الثقافة والآداب الإسلامية في المسلمين، وإحياء اللغة العربية وأدبها في هذه البلاد، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عالمي، وإنشاء صحيفة إنجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين، حتى يحسب لهم حساب ويرهب جانبهم، وتكون لهم مكانة عالمية تخشى وترجى، وإن في ذلك صيانة لدولتهم وضمانا لكيانهم. ولكن الأمراء المسلمين لم يعرفوا أهمية هذه المسألة، ودقة موقفهم والأخطار التي تحدق بهم. وكان يشكو قصر نظرهم، وضعف تفكيرهم، واشتغالهم بنفسهم".[1]

ولم تكن ثورة إقبال على الأمراء الغافلين فحسب، بل كانت ثورته أيضا

---

(١) روائع إقبال، أبو الحسن الندوي، دار القلم، دمشق ١٤٢١هـ/١٩٩٩م، وقد ذكر الشيخ أبو الحسن أن هذه الإمارات ألغيت بعد التقسيم بجرة قلم، وذهب الأمراء و"أصحاب السمو" الذين لم ينتفع الإسلام والمسلمون بثروتهم وكنوزهم."فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين".

على العلماء المتقاعسين الذين لا ينتفعون بعلمهم ولا ينفعون، وقد عبر عن ذلك في شعره، فمن ذلك قوله:

"إن الفقير المتمرد على المجتمع -يعني نفسه- لا يملك إلا كلمتين صغيرتين، قد تغلغلتا في أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته، وهما: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وهناك علماء وفقهاء، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه".[1]

ولم تكن أمور المسلمين في الهند لتشغله عما يُراد بالمسلمين في دار الخلافة، وفي محاورة خيالية أجراها إقبال مع جلال الدين الرومي الذي عرفه إلى رجلين يصليان أحدهما أفغاني والآخر تركي، وقد عرف فيهما محمد إقبال كلا من جمال الدين الأفغاني وسعيد حلمي باشا، ويشكو إقبال إلى الأفغاني واقع الحال فيقول: "أصبح الأتراك والإيرانيون سكارى بصهباء أوروبا ونشوتها، وأصبحوا فريسة كيدها ودهائها".[2]

التكوين

يرى قارئ سيرة محمد إقبال وبديع الزمان النورسي مشابه واضحة بين الرجلين، فقد نهل كل منهما من الثقافتين الشرقية والغربية وتضلع فيها تضلعا جعله مؤهلا للرسالة الشامخة التي أنيطت به. فلقد درس إقبال في مدرسة إنجليزية في بلده، ثم التحق بالكلية في ذلك البلد، وهناك درس العربية والفارسية، وحين انضم إلى كلية الحكومة في لاهور، عاصمة البنجاب، حضّر شهادة في الفلسفة، وبرز في العربية والإنجليزية، ونال وسامين، وأخذ شهادة (B.A) بامتياز، ثم نال

---

(١) المرجع المذكور، ص٣٥.

(٢) نفسه، ص ١٥٣.

شهادة (M.A) في الفلسفة أيضا. ومنذ عام ١٩٠٥م بدأت رحلة إقبال في عالم الغرب للنهل من ثقافته، وقد بدأ هذه الرحلة بالالتحاق بجامعة (كامبردج) في لندن حيث بقي هناك ثلاث سنوات، قبل أن يلتحق بجامعة ميونيخ بألمانيا لينال من هناك الدكتوراه في الفلسفة، ويعود إلى لندن مرة أخرى، ليرجع إلى الهند وقد نال من علوم الغرب، في دياره، ما مكنه من معرفة أسرار الحضارة الغربية، حتى إذا قام لانتقادها قام بذلك على بصيرة. وقد قام أثناء إقامته ببريطانيا بتدريس الآداب باللغة العربية في جامعة لندن، مدة غياب أستاذه توماس أرنولد.

أما بديع الزمان النورسي فقد تبحر هو كذلك من الثقافة الغربية، فاطلع على فلسفتها ومذاهبها الفكرية، وبرزت مواهبه في تفنيد المذاهب الفكرية والفلسفية المنحرفة. ومما يذكر هنا أن كلا الرجلين أدرك تلك المكانة الرفيعة في وقت مبكر من السن. وقد آنس بديع الزمان ذلك من نفسه، إذا لما رحل إلى إستامبول عام ١٨٩٦م، وهو دون العشرين من العمر، علق لوحة على بابه كتب فيها: "هنا تحل كل معضلة ويجاب عن كل سؤال من دون توجيه سؤال لأحد".[1]

حب العربية

كان كل من بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال رجلا أعجميا غير عربي، ولكن لما كان كل واحد منهما يجعل القرآن الكريم زاده، ومبتداه ومنتهاه، لا يصدر إلا عنه، ولا يستظل إلا بظله، تشربا حب العربية ودافعا عنها ورأياها من تمام الدين. فأما بديع الزمان فكان إتقانه للعربية عظيما، وحبه لها كثيرا، وقد بدأ التأليف بها قبل أن يؤلف بالتركية، إذ كان أول ما نشر له بالعربية كتابه القيم: (إشارات الإعجاز)، ثم في سنة ١٩٢١م (قزل إيجاز في المنطق). وفي أنقرة ألف:

---

(١) رجل القدر في حياة امة، أورخان محمد علي، استانبول ١٩٥٥م/ ص٣٧.

ذيل الذيل- الحباب- وأجزاء أخرى من المثنوي العربي النـــوري.

أما باللغة التركية فنشر في سنة ١٩٢٣م (السنوحات).

ولقد كتب بديع الزمان رسائله بالتركية، بالخط العثماني، المعتمد الحروف العربية، ولما ألغى النظام استعمال هذه الحروف، عُرض على بديع الزمان نقـــل رسائله إلى الحرف الجديد، ولكنه كان يأبى إلا أن تظل بالحرف العثماني/ العربي، إلى أن شرح الله صدره لهذا الأمر في أواخر سنوات عمره، بعدما ألح في ذلـــك بعض طلاب النور وشرحوا له الفائدة العظيمة في نقل الرســـائل إلى الحـــروف المستحدثة، لما في ذلك من تعميم فائدتها على الأجيال الناهضة.

أما محمد إقبال فقد كتب دواوينه الأولى بالأوردية أولا، ثم كتب بعد ذلـــك سائر دواوينه بالفارسية، لأنها في رأيه أكثر انتشارا. أما العربية فلم يؤثر عنه أنـــه كتب بها، إلا أنه كان لها محبا، وفي علومها متبحرا، وإلى تعليمها وتلقينها كافـــة المسلمين داعيا، إذ لا سبيل إلى النهوض الحضاري إلا بالقرآن الكريم وتـــدبره، ولن يكون ذلك أبدا إلا عن طريق العربية. وقد رأينا كيف أن إقبالا خبر العربية في بلده، على يد الأستاذ مير حسن، أستاذ الفارسية والعربية، وكان إقبال شديد الإعجاب به. وقد ذكر أبو الحسن الندوي أنه قدم لمحمد إقبال ترجمته لقـــصيدته البديعة (القمر)، فتصفحها محمد إقبال ووجه إليه أسئلة عن بعض شعراء العربية يختبر به دراسته وثقافته،[1] وهذا لا يكون إلا ممن خبر العربية وأسرارها. ومـــما يدل على اطلاع إقبال على آداب العرب وأشعارها ما رواه عنه الـــشيخ أبـــو الحسن الندوي في آخر زيارة له. قال الندوي رحمه الله تعـــالى: "واسترســـل في الكلام وأفاض وتحدث في كل موضوع، تحدث عن الشعر العربي القديم، وتحدث

(١) روائع إقبال، ص ١٠١١.

عن إعجابه بصدقه وواقعيته، وما يشتمل عليه من معاني البطولة والفروسية، وتمثل ببعض أبيات الحماسة، وذكر أن الإسلام أثار في أتباعه روح الكفاح وحب الواقع، وأن علوم الطبيعة تلتقي مع الإسلام على الجد والعمل والبعد عن البحوث الفلسفية التي لا جدوى منها.."[1].

وقد تتبع أبو الحسن الندوي العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال، فذكر أنه تخرج من مدرستين: المدرسة الأولى هي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية، وهي مدرسة -على أهميتها- أمرها هين، وأما المدرسة الثانية التي كان لها أعظم الأثر في شخصيته فهي مدرسة متميزة، لأنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان، ويحملها الإنسان معه في كل مكان، وهي مدرسة القلب والوجدان، وهي مدرسة تشرف عليها المدرسة الإلهية وتمدها القوة الروحية.

أما العوامل الخمسة التي نبعت من هذه المدرسة المتفردة وكونت شخصية إقبال فهي :

١) الإيمان. ٢) القرآن الكريم ٣) معرفة النفس ٤) الاتصال بالله تعالى، ومناجاة ربه ساعة السحر. يقول في قصيدة :"اللهم، ارزق الشباب أنتي في السحر، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي، التي تطير بها وتصطاد؛ وليست لي أمنية يا رب ! إلا أن تنتشر فراستي، ويعم نور بصيرتي في المسلمين".

٥) المثنوي الفارسي الذي نظمه جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ونفسية جديدة ضد الموجة الإغريقية العصرية التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره".[2]

---

(١) روائع إقبال، ص ١٢.

(٢) روائع إقبال، ص ٢٩٥٠.

ولما تدبّرت هذه العوامل جميعا، وعرضتها على سيرة بديع الزمان النورسي وجدتها تستجيب لها أيّما استجابة، ووجدت سببا آخر من أسباب ائتلاف الرجلين، حتى لكأن أبا الحسن الندوي كان يتحدث عن النورسي لا عن إقبال.

فأما الإيمان فيكفي أن الأستاذ بديع الزمان وقف رسالته على شيء واحد هو إنقاذ الإيمان، وقد ضحى في سبل ذلك بكل غال ونفيس. أليس هو القائل في هذا الصدد: "نعم. إن أجلّ مسألة في هذا الكون وأعظم سر خلق العالم هو سر الإيمان، فليس في الوجود مسألة أعظم منه كي يسخر في سبيلها ويستخدم لأجلها؟".[1]

وأما معرفة النفس، فقد جعلها النورسي طريقا لابد منه لسلوك الطريق القويم.

وأما القرآن الكريم فيكفي أن أعظم ما كان يحب النورسي أن يوصف به هو أنه خادم القرآن الكريم، وهو القائل: "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها"

وأما جلال الدين الرومي وديوانه: (المثنوي) فحسبنا أن نعلم أن إعجاب النورسي به بلغ حد وضع كتاب على منواله، هو: (المثنوي العربي النوري)، وهذا أمر يدعو إلى الدهشة، إذ كيف حدث أن يكون جلال الدين الرومي وكتابه المثنوي أقرب الكتب إلى روح الرجلين، على كثرة العلماء والأدباء والعارفين الذين تم الاستشهاد بهم؟

---

(١) رجل القدر في حياة أمة، ص ١٨٠.